الموت و معتقداته الشعبية في بلاد الشام "الجذور والديمومة"

د.بشار محمد خليف

باحث في تاريخ العالم العربي

دمشق – الجمهورية العربية السورية

Khleif200@hotmail.com

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بشار محمد خليف ، الموت ومعتقداته الشعبية في بلاد الشام: الجذور والديمومة.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس ؛ ديسمبر ٢٠٠٩.

ص٤٤ - ٤٩.(www.historicalkan.co.nr)

" أخبرْني ، صديقي ، أخبرْني صديقي ،
أخبرني بحالات العالم السفلي ، الذي رأيتْ "[١]

(ملحمة جلجامش)

الموت

ظاهرة ، مقرونة بالحياة ، بانتفائها ينتفي ، أو لعلنا أمام تواطؤ بينهما فمقابل اخضرار الحياة يلمع سيف الموت الأسود ليحصد ما زاد عن حاجة الحياة و خصبها ، وأحيانا ما لم يزد عن حاجة الحياة.

تأملَ أرسطو الموت فقال: " الموت أكثر الأشياء فظاعة "[٢]. أما أسخيلوس فقد أشاد بالموت" كشفاء من بؤس الحياة "[٣] ، في حين وقف الفيلسوف زينون الرواقي متصالحاً مع الموت بقوله:" إن الموت ينتمي إلى النظام الكوني للأشياء فهو موافق للطبيعة وبالتالي فإنه قانون عادل ، و لا أساس للشكوى منه أو الاحتجاج ضده "[٤]. إذن هو التسليم بشرعة الموت طالما أنه قدر محتوم ، و لا يبقى على الإنسان سوى وعي الموت و ظواهره و حتميته ، كي يفوز بحياة هي طقس للعبور نحو عالم يكتنفه الغموض و طلاسم المجهول.

ولعل الانشغال بظاهرة الموت ، اقتضى مرور ملايين السنين من الوجود البشري على الأرض ، حتى غدا دماغ الإنسان قادراً على وعيّ هذه الظاهرة و استنباط الحلول التعويضية اللا شعورية تجاهها[٥] . فإذا كان أقدم وجود بشري دلّتْ عليه اللقى الآثارية يعود إلى ٣،٥ مليون سنة في أفريقيا ، فإن الوجود البشري في المشرق العربي / الهلال الخصيب/ حسب المعطيات الآثارية يعود إلى حوالي مليون سنة ، و ذلك في موقع " ست مرخو" في اللاذقية بسوريا ، حيث أبان الموقع عن أدوات خلّفها الإنسان هي عبارة عن فؤوس و معاول وسواطير و شظايا و نوى و قواطع استخدمها الإنسان آنذاك لغاية حياة الصيد و التقاط بذور النبات.[٦]

البنية الدماغية للإنسان ووعي ظاهرة الموت

ليس الإنسان الحالي من سلالة القرود ، إنه من سلالة الرئيسيات التي عاصرت سلالات أخرى لم تتطور إلى الحالة الإنسانية ، فبقيت على حالتها مورفولوجياً و فيزيولوجياً. أما لجهة سلالتنا من الرئيسيات فقد تطورَ إدراكها مع الزمن/ تبعاً لتفاعلها مع البيئة الطبيعية ومجالها الحيوي/ ، ولعل قوة التفاعل تلك هي التي قدّمتْ حوافز التطور الدماغي لدى إنسان المشرق العربي منذ مليون سنة خلت و حتى الآن.[٧] فالمعلوم أن البنية الدماغية لدى الإنسان تتألف من ثلاثة أقسام:

- القشرة الدماغية:

التي تشكل ٨٥ % من دماغ الإنسان و تتجلى وظيفتها الأولى في الإدراك. و تتألف من أربعة فصوص هي : الفص الجبهي - الجداري - الصدغي - القذالي.

- القسم الحوفي أو الطرفي:

يعتبر مركز عواطف التدين و الفرح و الغيرة و العاطفة الإنسانية بما فيها ظاهرة الموت.

- القسم الزواحفي.[٨]

وفي مناقشتنا هنا لوعي ظاهرة الموت في العقل الإنساني فإن ما يهمنا هو التطور المُتبدي في القسم الطرفي من الدماغ ، حيث تشير المعطيات العلمية إلى أن وعي هذه الظاهرة استغرق زمناً طويلاً امتد لملايين السنين حتى غدا الإنسان واعياً لها ولمقتضياتها. و في المشرق العربي استغرق هذا الأمر مرور حوالي ٩٠٠ ألف سنة حتى بدأ الدماغ الإنساني يعي هذه الظاهرة.

فقبل ١٠٠ ألف سنة تقريباً وحسب المعطيات الآثارية يبدو أن الإنسان المشرقي لم يعد ليترك أمواته نهباً للوحوش أو ضحايا للتفسخ والتعفن ، بل سعى إلى دفنهم وفق شعائر معينة ، دلّ على ذلك اكتشاف موقع مغارة الديدرية قرب مدينة حلب في شمال سوريا ، حيث عثر على حوالي ٧٠ قطعة عظمية بشرية دُفنت في هذه المغارة ولم تترك في البرية أو السهول.

وفي التسعينيات من القرن العشرين عُثر على هيكل عظمي لطفل عمره سنتان و طوله ٨٢ سم ، حيث دُفن في حفرة مستلقياً على ظهره وكانت يداه ممدودتان و قدماه مثنيتان ، وتحت رأسه بلاطة حجرية وكذلك على صدره فوق القلب. يؤرخ هذا الطفل بحدود ١٠٠ ألف سنة. كما عثر عام ١٩٩٧ على هيكل عظمي آخر لطفل ثان عمره سنتان أيضاً. إن طرق الدفن المتبعة في هذا الموقع تدل على ظهور وعي لدى الإنسان آنذاك لضرورة العناية بالموتى وفق شعائر وطقوس معينة.

ثم سوف تكرّ سبّحة الاكتشافات الأثرية ، حيث نشهد طقوس دفن متقدمة في فلسطين في مغارة قفزة ، حيث عُثر على ١٢ هيكلاً عظمياً تؤرخ بحدود ٥٠ ألف سنة و يتميز هذا الموقع بالعثور على قبر امرأة شابة مستلقية على جنبها الأيسر و مثنية الرجلين ، وإلى جانبها طفلها الواضع رأسه على صدرها في حين كان بين يديه غزال يعطي دلالة على رمزية الخصب و الحياة.[٩]

وفي الرافدين عثر في موقع كهف شانيدار على هيكل عظمي لرجل في الأربعين من عمره يؤرخ في حدود ٦٠ ألف سنة. ونتيجة البحث العلمي تبين أنه كان يعاني منذ طفولته من شلل نصفي بالإضافة إلى أنه أعور ، و يعاني من التهاب في المفاصل ، و يبدو أنه توفي في شهر حزيران. والطريف في الأمر هنا أن الذي سبّب موته هو سقوط صخرة من سقف الكهف عليه ، و تبين أن الورود نُثرت حول جثته.[١٠]

إن الدلائل التي قدمتها لنا المعطيات الآثارية لهذه المواقع ، تشير إلى أننا أمام حالة شعائرية و طقسية تم عبرها دفن الموت وسط تطور متبدٍ في البنية الدماغية التي انعكست على إنسان تلك المرحلة ، و هذا ما يؤكد وعي ظاهرة الموت عبر تطور القسم الحوفي من الدماغ لدى الإنسان تبدّت منذ حوالي ١٠٠ ألف سنة من الآن ، إلا إذا قُدمت الاكتشافات الآثارية معطيات جديدة تُعيد وعي هذه الظاهرة إلى زمن أبكر من ذلك.

ظاهرة الموت
في المستوى النفسي لدى الإنسان

منذ وعى الإنسان في المشرق العربي لظاهرة الموت في حدود ١٠٠ ألف عام ، انعكس هذا على بُعده النفسي. فوعي هذه الظاهرة المؤلمة انعكس عليه في المستوى اللا شعوري ، حيث صُدم الإنسان بمصيره الحتمي ، وهذا ما شكّل انفعالاً في عقله الباطن ، ما أدّى إلى تصورات مشحونة بهذا الانفعال تمَّ التعبير عنها في الدراسات النفسية بعقدة التخلي أو النبذ.

ومعلوم أن لكل عقدة نفسية لدى الإنسان ضروب تعويضية لا شعورية ، تسعى بالإنسان إلى إعادة توازنه ، وتتراوح بين الايجابية والسلبية تبعاً للانفعال الذي واكبَ النفس تجاهها. فهي عقدة الإحباط الانفعالي ، عقدة الاستبعاد ، وسواس القطيعة و في صورتها المصعّدة: تصبح هذه العقدة فلسفة في الوجود الإنساني ، فالإنسان " مُلقى في هذا العالم " فريسة التخلي وحصر العزلة الذي يتصف بأنه مقضيّ عليه ميتافيزيقياً.[١١]

و على ذلك ، فإن ضروب التعويض عن هذه العقدة تتبدى في مستويات عدّة:

- المستوى الأول:

معاناة من ألم التخلي و الفقد بما يؤدي إلى الانكفاء و العزلة في الحياة و اجترار الكآبة والاستسلام للموت.

- المستوى الثاني:

تعذيب الإنسان لنفسه و تحميلها ألواناً من حياة سوداوية كئيبة.

- المستوى الثالث:

حيث يلجأ الإنسان إلى الحلول الصوفية أو الإيمان بالتقمّص أو التناسخ أو بوجود حياة بعد الموت.

- المستوى الرابع:

حيث يميل الإنسان إلى الانتحار و رفض الحياة و ربما تنتابه نوازع عدوانية و سادية.

- المستوى الخامس:

أن يتزن الإنسان وفق المبدأ الرواقي حيث القبول بالموت و العمل في الحياة كأن الإنسان خالد ، واعتبار الموت جزءاً من الحياة.

الجدير ذكره هنا هو ؛ أن الأديان السماوية جاءت بحلول لهذه العقدة و ضروب تعويضية صالحت الإنسان مع الموت ، عبر وجود حياة بعد الموت يُحاسب فيها الإنسان من قبل الرب على أفعاله في الحياة ، فقدمتْ علاجاً نفسياً لموضوع يؤرق الإنسان منذ وعيه لظاهرة الموت من جهة أولى ، وخلقت معادلاً موضوعياً لهذا الأمر يتجلى في إتباع قواعد أخلاقية و مناقبية في الحياة للفوز بعالم ما بعد الموت في منحاه الإيجابي.

الجذور التاريخية
للمعتقدات الشعبية حول الموت

إن الأساس في استمرارية الذهنية الشعبية لظاهرة الموت يتبدى في وجود استمرارية حضارية ، وتواصل حضاري بشري ، وهذا محقق في المشرق العربي منذ مليون سنة ، حيث أن هناك استمرارية وتواصل حضاري عبر العصور منذ ما قبل التاريخ إلى الآن ، وهذه الاستمرارية استندت على عوامل تفاعلية ، إن كان لجهة التفاعل مع البيئة الطبيعية والمجال الحيوي أو لجهة تفاعل البيئة الاجتماعية بمكوناتها المتجددة عبر العصور والتي انصهرت في معظمها ضمن بوتقة المنظومة الحضارية للمشرق العربي.

و هنا سوف نأخذ بعض المعتقدات الشعبية والحكم و الأمثال التي مازالت مستمرة في مجتمعنا المشرقي ، و نقاربها مع ما كان سائداً في العصور الموغلة في القدم ، و هذه المقاربة تستند على قاعدة في علم النفس التحليلي يشير إليها كارل غوستاف يونغ بقوله :" كل إنسان متمدن ، مهما بلغت درجة وعي نموه ، لم يزل إنساناً قديماً في الطبقات السفلى من كيانه النفسي ، و كما أن الجسم البشري يوصلنا بالثدييات

وكشف لنا عن بقايا كثيرة من مراحل تطور أولية ترجع إلى عصور الزواحف ، فكذلك النفس البشرية التي هي نتاج تطور إن تتبعنا أصوله ، تكشف لنا عن عدد لا حصر له من السمات القديمة".[١٢]

رهبة الموت وظهور الأرواح

جاء في كتاب "المعتقدات الشعبية في التراث العربي": (يعتبر الموت العادي في التراث الشعبي بشكل عام ، فاجعة للناس ، قاطعاً لحبل الرباط بين الإنسان وأهله ، ونظراً لما له من أهمية فقد كثرت حوله المعتقدات منذ اللحظة الأولى التي يشعر فيها الناس بأمر الموت وحتى ما بعد الدفن بأيام و أسابيع و سنين. و تتنوع المعتقدات المتعلقة بالموت في مضمونها ، فنرى منها ما يدخل في باب التشاؤم ، و منها ما يدخل ضمن دائرة الأحاسيس الإنسانية ، وبعضها يدخل ضمن دائرة التصورات الميتافيزيقية ، دينية و غير دينية ..).[١٣]

شعائر الموت في المعتقد الشعبي المشرقي وجذورها التاريخية

إلى الآن يسعى المشرقيون في طقوس الدفن إلى إحداث حفرة صغيرة عند الشاهدة أو ترك تربة رملية فوق القبر ، غايتها صبّ الماء حين زيارة القبر ، وزرع النبات الأخضر الدائم الخضرة ، و لعل الاعتقاد الآن لدى مجمل الناس أن هذا يرطّب القبر لا أكثر. و لكن بالرجوع إلى وثائق المشرق العربي المسمارية و في مواقع مختلفة نجد أن هذا الطقس يمتد منذ عصور ما قبل التاريخ وتم توثيقه في الكتابات المسمارية منذ خمسة آلاف عام ، واستمر مع الزمن. حيث أن تقديم القرابين للموتى من طعام أو ماء أو إقامة الشعائر عليهم في يوم الندب تحميهم من أرواح هؤلاء الموتى وترضي رموز العالم السفلي.

نقرأ في إحدى الوثائق:" أن الأشباح الشريرة تخرج من القبر من أجل الحصول على الطعام و الماء "[١٤] وإحدى الوثائق أيضاً تشير إلى إنسان كان يعاني من مرض وحسب اعتقاده أن شبحاً يلازمه من أرواح الموتى حيث يخاطبه: "سواء كنت شبح شخص غير مدفون ، أو كنت شبحاً لم يلق عناية لائقة ، أو شبح الميت الذي لم تقدم له القرابين الجنائزية أو الذي لم يسكب له الماء.."[١٥] وهنا تحيلنا وثائق المشرق العربي القديم إلى عدة أنواع من الشعائر الجنائزية التي كانت تقام لعدة أهداف أهمها:

١- إرضاء الإله و بذا يضمن الناس حسن تعامل الإله مع روح الميت.

٢- إرضاء روح الميت حتى لا تضطرب و تعود بهيئة شبح يبعث الرعب و الفساد في الأحياء.

وكانت الشعائر تتضمن إقامة وليمة جنائزية على روح الميت لغاية خير المجتمع و هذا ما استمر في معتقداتنا الشعبية في ذبح الخراف وتوزيعها على الفقراء كرمى لروح الميت. كانت الوليمة الجنائزية يطلق عليها بالأكادية / كسبا كسابو / حيث تصفّ المقاعد حول الأطعمة القربانية / لحوم الخراف —أنواع الفواكه —المشروبات / و يترك مقعد فارغ لروح الميت الذي أقيمت الوليمة لأجله ، و كان هذا المقعد يسمى :" كرسي الروح " و بالأكادية : 16). kussu etemme)

أيضاً هناك نوع من الشعائر الجنائزية كان يطلق عليه اسم " مي نقو .. بالأكادية " ، و معناه بالعربية ، ماء نقي. حيث يتم سكب الماء في القبر. و هناك نوع آخر هو " شم زكارو " ، و بالعربية " ذكر الاسم " ، حيث يقصد به إحياء ذكر الميت في عالم الأحياء ، إن كان في ذكرى الأربعين / والتي تعود جذورها إلى التقاليد المصرية القديمة / أو في ذكراه السنوية. كذلك في إطلاق اسم الميت على أول مولود يأتي للعائلة كنوع من تخليد ذكر الميت.[١٧]

ولعل حرمان الميت من هذه الشعائر يؤدي إلى صعود روحه بهيئة شبح مسيء للأحياء. وتذكر نصوص الملك الآشوري " آشور بانيبال " أنه انتقم من الملوك العيلاميين الموتى حيث أخرج عظامهم من قبورهم ، " لقد أقلقت راحة أرواحهم ، إذ حرمتهم من القرابين الجنائزية و سكب الماء .. "[١٨]

إن ما استمر من هذه الاعتقادات حول أرواح الموتى المحرومة من العناية اللائقة عبر الشعائر الجنائزية ظهر في المعتقد الشعبي المشرقي بلبوس الجن أو الجان. فحسب هذه المعتقدات " تعتبر الجان مؤذية وشريرة تجلب النحس والمرض والرعب وتعتبر مخلوقات غيبية ، غير مادية ، من غير طبيعة البشر و غير طبيعة الملائكة ".[١٩]

و تشير بعض الدراسات إلى أن هذه الكائنات ربما كانت امتداداً للخيال الشعبي من أرواح الموتى أو الموتى أنفسهم ، ذلك لأنها توجد في باطن الأرض عادة ولأنها تضطر للعودة إلى مقرها قبل طلوع الفجر.[٢٠] و يبدو أن الجان أو الجن اقترن وجودها مع الموتى في باطن الأرض في معظم المعتقدات الشعبية في العالم. و هذا ما يدفعنا إلى دراسة العالم السفلي في تراثنا المشرقي. وقد حفلت اللغة الأكادية بعدة أوصاف للعالم السفلي و بمعان مختلفة ، فهو: (قبرو qabru أي قبر / أرصيتو شبليتو أي الأرض السفلى / أرصيتو ميتوتي أي أرض الموتى / خربو أي الخربة).

كان هناك في المعتقد المشرقي القديم اعتقاد أن العالم السفلي تسكنه شياطين أو جان ، على أنواع عدة ، منها ما هو سماوي ومنها ذو أصل بشري كأرواح الموتى ، وهناك من كان أصله من العالم السفلي ، و يبدو أن هذا الأخير يتصل بتصور المجتمعات الحالية عن عزرائيل وقد جاء وصفه في إحدى الوثائق: "عبر الأسوار العالية السميكة ، يمرّون كالطوفان ، يمرون من بيت لبيت ، لا يمنعهم باب ولا يصدهم مزلاج ، فهم ينسلون عبر الباب كانسلال الأفاعي ، ويمرقون من فتحته كالريح ، ينتزعون الزوجة من حضن زوجها ، و يختطفون الطفل من على ركبتي أبيه ويأخذون الرجل من بين أسرته ".[٢١]

ولعل أوضح وصف لعزرائيل في الكتابات المشرقية القديمة ما ورد في ملحمة جلجامش على لسان أنكيدو في وصفه لحالة موته: "كانت السماء ترعد فاستجابت لها الأرض ، وكنت واقفاً وحدي فظهر أمامي مخلوق مخيف مكفهر الوجه ... لقد عرّاني من لباسي وأمسك بي بمخالبه وأخذ بخناقي حتى خمدت أنفاسي .. أمسك بي و قادني إلى دار الظلمة .. إلى البيت الذي لا يرجع منه من دخله .. إلى البيت الذي حرم ساكنوه من النور .. و يعيشون في ظلام لا يرون نوراً ".[٢٢]

الجدير بالذكر ؛ أن مواعيد إقامة الشعائر الجنائزية كانت تتم قديماً بشكلين: شهري و سنوي ، فالأول يُقام في التاسع و العشرين من الشهر ، وهو اليوم الذي يكون فيه القمر محاقاً ، حيث كان الاعتقاد أن فيه تتجمع أرواح الموتى مما يدفع الأحياء لتقديم القرابين و إقامة الشعائر. وقد أُطلق على هذا اليوم اسم "يوم القرابين الجنائزية ، يوم سكب الماء "(٢٣) عليه نعوت عديدة منها "يوم وليمة الموتى " و " يوم الكآبة " و " يوم الندب ". أما الموعد السنوي فكان يتم في شهر آب حيث تبلغ الطقوس ذروتها في اليوم التاسع منه حيث الاعتقاد أن أرواح الموتى تنعتق من احتجازها في العالم السفلي .[٢٤]

وفي المقابل نجد في المعتقدات الشعبية المعاصرة أن هناك ما يسمى \خميس الأموات\ ، حيث يتم إقامة الشعائر الجنائزية بذكرى الموتى فيذهب الناس لزيارة القبور حاملين الأطعمة و الماء ، ويذهب الفقراء أيضاً ليحصلوا على ما يوزعه أقارب الموتى من طعام. ويعتقد الناس أن الطعام الذي يصل إلى الفقراء يصل إلى أرواح الموتى.[٢٥]

ويشير ألكزندركراب في كتابه "عالم الفلكلور" ، إلى أن الناس يحرصون على زيارة القبر في الأسبوع الأول من موت الشخص حيث تشرب على قبره القهوة و تقام الطقوس الدينية و توزع الحلوى ، وهذا حسب اعتقادهم رحمة للميت ودفع بلاء عن الأحياء من أهله و عياله وهم يذهبون لزيارة القبور بعد شروق الشمس وذلك لاعتقادهم بأن أرواح الموتى تختفي بعد الشروق. كما يشير إلى استرضاء الموتى عن طريق تناول الطعام عند قبورهم.

وهناك عادة وثيقة الصلة بهذه الممارسات وهي إعطاء الميت قطعة من النقود أو وضع هذه القطعة في فمه و هذه العادة كانت شائعة في حضارات المتوسط في العصور القديمة.[٢٦] ولقطعة النقود هذه أساس قديم في المشرق العربي فقد كان اعتقادهم أن الإنسان حين يموت ويوضع في القبر فسوف يعبر " نهر عبر " إلى العالم الأسفل ، و هذا يتطلب إعطاء صاحب المركب النقود أو الفضة لأجل ذلك ، لا بل إن بعض القبور حوت في مرفقاتها الجنائزية على لقى جنائزية بشكل مراكب قد يستعين بها الميت في عبور النهر باتجاه العالم السفلي.

مناقشات في وصف حال الميت

إلى الآن و وفق المعتقد الشعبي المشرقي نسمع أن الإنسان إذا كان يحتضر يُقال أن " نجمهُ غاص " ، و لا أعتقد أن الإنسان الحالي يعي معنى هذا الوصف ، غير أننا وثائق المشرق العربي القديم و في مواقع مدنه المختلفة تعطينا الجواب. ففي الألف الثاني / وربما الثالث ؟ / قبل الميلاد ، نشط البابليون ومن ثم الكلدانيون في حقل الفلك والدراسات الكونية ، وتشير وثائق تلك العصور إلى أن لكل إنسان نجماً في السماء يخصهُ فإن أفلَ النجم مات صاحبه. فالاعتقاد بالنجوم كان يلعب دوراً مهماً في حياة الناس ، و ثمة اعتقاد آخر بأن لكل إنسان برجاً خاصاً ، يتحكم بمجرى حياته ، و إن علاقة هذا البرج مع غيره يسبب لصاحبه الخير أو الشر.

ويشير قاموس الكتاب المقدس إلى أن الكواكب تسيطر على حياة الإنسان ، و هذا إيمان موروث من عبادة النجوم زمن الكلدانيين حيث ترعرعت أعظم حضارة فلكية و نشأ معتقد عبادة الأجرام السماوية.[٢٧]

ويشير الدكتور إبراهيم بدران والدكتورة سلوى الخماش إلى أن البابليين و الكلدانيين كانوا من أوائل من اهتم بمراقبة الأجرام السماوية أثناء ترحالهم ، مما تولد عنه مع الزمن الخرافة القائلة بأن حركة الأجرام تتحكم في حياة الإنسان وأن مستقبله يتحدد بالنجم الصاعد ساعة ميلاده والنجم الهابط في ذلك الوقت أيضاً ".[٢٨]

أيضاً ثمة قول لوصف من مات في المعتقد الشعبي حيث يقال: سقطتْ ورقتهُ .. و هذا القول يعود إلى اعتقاد قديم يقول ، إن الشجرة التي إلى يمين العرش الإلهي ذات الأغصان الكثيفة و الأوراق الخضراء الزاهية تضم كل أسماء البشر ، فإذا ولد المرء ظهرت ورقته على تلك الشجرة ، و إن مرض مال لونها إلى الاصفرار و إذا ما شفي عادت للاخضرار .. و إن أوشك على الموت اصفرت ورقته وحين يموت .. تجف و تسقط مغادرة شجرتها الأم .[٢٩]

وثمة قول آخر عن الميت في الاعتقاد الشعبي حيث يقال: "خلصت ميتو " أي انتهت مياهه ، ومعلوم أنه في المعتقد الشعبي يتم تنقيط الماء في فم الإنسان المحتضر حتى يبقى ريقه رطباً ، و هذا يرتبط برمزية الماء في الحضارة الشرقية و التي هي رمزية خصبة نقيض حالة الموت وهذا ما يستتبع أيضاً إجراء طقس سكب الماء في قبر المتوفي .

الجماجم المقولبة قديماً .. الصور الشخصية حديثاً

الإنسان المعاصر يضع الآن صورة المتوفى العزيز عليه على الحائط لاستمرار تذكره و نوع من دواعي بقائه بين الأحياء أو بالأحرى تمنّي بقاء ذكره. وهذه المشاعر الإنسانية النبيلة نجد أصداء لها منذ بواكير الحضارة الإنسانية و لكن الأسلوب الفني المُتبع مختلف. فبالعودة إلى المشرق العربي القديم و مع زمن ابتكار الزراعة في الألف التاسع قبل الميلاد ، نجد أنفسنا أمام ظاهرة أُطلق عليها اسم الأرواحية أو تقديس الأجداد ، حيث يصار إلى فصل جمجمة الميت عن جسده ، و توضع على جدار المنزل لاعتبارات عقائدية ، و هذا ما عثر عليه في موقع المريبط في سوريا و موقع أريحا في فلسطين.[٣٠]

وفي خطوة لاحقة متطورة عن الأولى ، أ صبح الإنسان يعمل هذه الجماجم كنوع من التعويض في المستوى النفسي الجمعي ، حيث نشأ ما يسمى بالجماجم المقولبة ، إذ كانوا يعيدون تشكيل الجمجمة بالجص ، و يتم صبغها بما يماثل لون بشرة الإنسان ، ثم تُنزّل العيون بالصدف أو القواقع و يرسم على الجمجمة خيوط بنية كدلالة على شعر الرأس. و قد عُثر على هذه الجماجم المقولبة في مواقع عدة في أريحا وبيسامون و وادي حمار و في تل الرماد.[٣١]

شباط : شهر الندب

إلى الآن ، يُعتبر شهر شباط شهر الأموات في المعتقد الشعبي المشرقي. و علمياً ، فنحن نعتقد أن هذا الشهر الذي يوصف بأنه " لبّاط " و " مالو رباط " هو شهر التغييرات و عدم استقرار الفعالية الجوية والطقسية و كونه بعد شهرين شتويين فاعلين هما كانون الأول وكانون الثاني ، فإن أجسام الكهول و العجائز تتعب و يحين موعد قطاف أرواحها في شهر شباط.

وحتى الآن ، مازال كبار السن في الساحل السوري يتهيبون حضور شهر شباط ، لهذا فهم يلزمون بيوتهم طيلة الشهر خوفا من الموت ، وحين يرحل الشهر يخرجون من بيوتهم وهم يتمازحون بالقول :

راح شباط وحطينا في .....مخباط.

ويبدو أن هذا الأمر كان سائداً منذ العصور القديمة بما يعود إلى حوالي الألف الثالث قبل الميلاد ، إن لم يكن قبل ذلك . و كان شهر شباط في الوثائق المسمارية يسمى (شهر نهر عبر) و شهر الندب ، الجدير ذكره هنا هم أن أحوال المناخ في منطقة الهلال الخصيب لم تشهد تغييرات حاسمة منذ الآلاف الثالث قبل الميلاد.

وثمة أدلة تاريخية تشير إلى أن شواهد القبور هي ابتكار آرامي بامتياز ، ففي موقع "شمأل" في شمال سوريا عُثر على شاهدة قبر ارتفاعها متر و نصف تشتمل على رسومات فنية يُعتقد أنها تختص بحياة العالم السفلي.[٣٢]

ملاحظات عامة حول المعتقدات الشعبية في الموت

لا يبدو القبر في المعتقد الشعبي مكاناً أنيساً للأحياء ، و إن ضم في داخله ميتاً عزيزاً ، لذا فإن ثمة عادات ارتبطت بالقبر و استخدامه في الحياة الشعبية و اليومية ، فمثلاً : إذا كان رجل حاقداً على أحد ، فليس عليه سوى أن يذهب إلى أحد القبور ، و يأخذ حفنة من ترابه ويذروها على راس عدوه يوم زفافه ، و هذا بحسب الاعتقاد الشعبي سوف يجعل الإنسان ميتاً تماماً ، حيث ينتقل الموت من أموات المقابر إلى الشخص الحي مما سيرديه ميتاً.[٣٣]

كما ترى المعتقدات الشعبية أن العبث بالقبور و هدمها أو محاولة إزالتها / لاسيما للرجال الصالحين / سوف يؤدي إلى هلاك المعتدي على حرمة هذه القبور و شلله إلا إذا قدّم أضحية بذبح شاة و تقديمها للفقراء. وهذا باعتقادنا هو ترجيع لما ذكرته النقوش المسمارية حيث نقرأ:

" من يحطم ألواحي التذكارية .. عسى الإله أن ينسف بلاده بصاعقة مهلكة و يحلّ المجاعة و القحط و العوز و الفيضان ببلاده ، عساه ألا يدعه يوماً واحداً على قيد الحياة .. عساه يحطم اسمه و ذريته إلى الأبد"[٣٤]

ولعلنا نلاحظ الآن أن ما يميز الشعائر الجنائزية قديماً وحديثاً ثلاثة أشياء:

- أولها: سكب الماء و هو طقس موغل في القدم .
- ثانيها: تقديم الطعام و الذبائح كقرابين جنائزية على روح الميت. و هو طقس أيضاً موغل في القدم.
- ثالثها: وضع الأغصان الخضراء والآس وأسعف النخيل والورود على قبر المتوفي باعتقاد أنها ترطب جو القبر الموحش و الجاف .

ونحن نعلم رمزية اللون الأخضر في أنه رمز للخصب و الحياة و الربيع ، حتى أن الاعتقاد الشعبي يصف العروس أثناء زفافها إذا نزل المطر بأن " إجرها خضرا " أي قدمها خضراء في دلالة على الحياة و الخصب . و تستخدم أفرع شجرة النخيل في مواكب الدفن ، و عند زيارة القبور وفي تزيين المقابر .

وتجمع الدراسات أن شجرة النخيل عند الفينيقيين كانت شجرة الحياة لا بل و تمَّ توحيدها مع جنة عدن في ذهنيتهم و مع رمز الخصب عشتار ، كما أن هذه الشجرة كانت شجرة العائلة لدى شعوب مصر والهلال الخصيب و الجزيرة العربية. وتشير المعطيات إلى أن العرب قبل الإسلام عبدوا شجرة النخيل حيث كان في نجران شجرة يقام لها عيد سنوي.[٣٥]

وتتضح رمزية شجرة النخيل في المستوى الثقافي و الأنثربولوجي في علاقتها بالموت ثم الانبعاث أو بتوالي الولادة و الاستمرار. و قد أطلق على النخلة اسم العنقاء باعتبارها إذا ما سقطت بسبب الشيخوخة فلسوف تنمو من جديد خضراء يانعة كما كانت . و تذكر أساطير بعلبك أن طائر الفينيق أو طائر النخيل كان يحجّ إلى هليوبوليس أو بعلبك ليموت فيها ثم يعاود الحياة من جديد .[٣٦]

إن هذا الاعتقاد ضمن الذهنية المشرقية يشكّل كما أسلفنا تعويضاً عن حتمية الموت عبر الموت و الانبعاث الذي يشكّل رائزاً من روائز الثقافة الزراعية.

في بعض المأثورات والأقوال الشعبية حول الموت

تحفل الذهنية الشعبية في الهلال الخصيب بشتى المأثورات والأقوال و الحكم و الأمثال عن الموت و عالمه ، منها ما يستمد جذوره من الماضي و منها ما هو مستحدث. فهناك مَثَلٌ يقول:

" مَن خلّف ما مات "

بمعنى من له أولاد لم يمت لأنه مستمر بهم. و هذا نجد جذوره في ملحمة جلجامش حين سأل جلجامش إنكيدو / اللوح الثاني عشر / عن مصير من له ابن واحد أو اثنان .. و هكذا ، حيث يبدو أن مصير الميت جميل إن كان له أبناء كثر.[٣٧]

" من غير هاليوم "

أي من غير هذا اليوم: تقال في معرض التحدث عن شخص متوفي وحين يرد ذكر الميت يقال من غير هاليوم ، لئلا يموت الرجل المُخاطَب.

" فوق الموتة عصّة القبر "

أي فوق الموت ضيق القبر ، و تطلق على من تكثر في حياته المصاعب و لا يستطيع الانفكاك منها ، حيث تمّ استعارة هذه الصورة من عالم الموت .

وأطلق على الموت تعبير: ساعة الغفلة .. و موت أحمر ، تعبير عن الموت الدموي. و في باب الحكمة نقرأ : " بني آدم ما بملّي عينو غير التراب " وهذا يقال في وصف الانسان الطماع بالحياة ومتاعها. و"ما حدا آخد معو شي ".

إن هذه المقارنة تعتبر مدخلاً لدراسة أشمل و أعمق حول ظاهرة الموت في المعتقد الشعبي العربي بعامة و المشرقي بخاصة .. ولعل ما يمكننا التوصل إليه من بحثنا هو إن الموت حتمي على البشر و قدرنا أن نحيا حياة تليق بعبورنا إلى الحقيقة السامية .. المُطلقة في آن.

الهوامش

١-د. نائل حنون - عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة . وزارة الثقافة - بغداد - ط ٢ ١٩٨٦ .
اللوح الثاني عشر من " ملحمة جلجامش " ص ٣٤٣ .
٢-الموت في الفكر الغربي - سلسلة عالم المعرفة - الكويت .
٣-المرجع السابق .
٤-المرجع السابق .
٥-د. بشار خليف - دراسات في حضارة المشرق العربي القديم - مركز الإنماء الحضاري - حلب - سوريا - ٢٠٠٤ . ص ١٥٢
٦-د. سلطان محيسن - الصيادون الأوائل - دار الأبجدية دمشق ١٩٩٦ .
٧-للمزيد من التفصيل يمكن مراجعة مؤلفنا دراسات في حضارة المشرق العربي القديم .
٨-كارل ساغان — تنانين عدن — ترجمة نافع لبّس — اتحاد الكتاب العرب — دمشق ١٩٩٦ .
٩-د. سلطان محيسن — مرجع سابق .
١٠-المرجع السابق .
١١-روجر موشيلي — العقد النفسية — ترجمة وجيه أسعد — وزارة الثقافة — سوريا ١٩٨٥. ص ٧٠
١٢-كارل غوستاف يونغ — علم النفس التحليلي — دار الحوار — سوريا ١٩٨٥ .
١٣-محمد توفيق السهلي — حسن الباش — المعتقدات الشعبية في التراث العربي — دار الخليل — سوريا .(بلا تاريخ) . ص ١٣٩ .
١٤-١٥-د. نائل حنون — مرجع سابق — الدفن و الشعائر الجنائزية ص ٢٧٤

١٦-المرجع السابق –ص ٢٧٨ .
١٧-المرجع السابق –ص ٢٨١ .
١٨-المرجع السابق –ص ٢٨٢ .
١٩-محمد الجوهري –علم الفلكلور – ج ٢ –دار المعارف –القاهرة –ط ١ ١٩٨٠-ص ٥٥٣ .
٢٠-د. عبد الحميد يونس –الحكاية الشعبية –المؤسسة المصرية للتأليف و النشر –دار الكاتب العربي –١٩٦٨ –ص ٤٦-٤٧ .
٢١-د. نائل حنون –مرجع سابق ص ٢١٦ .
٢٢-د. نائل حنون –مرجع سابق ص ١١٠ .
٢٣-٢٤-د. نائل حنون –مرجع سابق ٢٨٨ .
٢٥-المعتقدات الشعبية –مرجع سابق ص ٢٠٣ .
٢٦-ألكزندر هجرتي كراب –عالم الفلكلور –ترجمة رشدي صالح –وزارة الثقافة –القاهرة –١٩٦٧ ص ١٥٦ .
٢٧-قاموس الكتاب المقدس –مكتبة المشعل –بيروت –ط ٦ –١٩٨١ ص ٩٥٩ .
٢٨-د. إبراهيم بدران –د. سلوى الخماش –دراسات في العقلية العربية –الخرافة –دار الحقيقة –بيروت –ط ٣ –١٩٨٨ ص ٢٩١ .
٢٩-المعتقدات الشعبية . مرجع سابق .
٣٠-د. سلطان محيسن –مرجع سابق .
٣١-جاك كوڤ ان –الأ لوهيتو الزراعة –ترجمة موسى خوري –وزارة الثقافة –دمشق ١٩٩٩ .
٣٢-د. علي أبو عساف –الآراميون –دار الأماني –سوريا –١٩٨٨ .
٣٣-المعتقدات الشعبية –مرجع سابق ص ١٦٧ .
٣٤-د. نائل حنون –مرجع سابق –ص ١٥٦ .
٣٥-شوقي عبد الحكيم –مدخل لدراسة الفلكلور و الأساطير العربية –ص ٥٩ –١٩٨٢.
٣٦-المرجع السابق –ص ٣٣٦
٣٧-د. نائل حنون . مرجع سابق.

من مؤلفات
دكتور بشار خليف

كتاب: حوارات في الحضارة السورية
دار الرائي للنشر والتوزيع ٢٠٠٨

يضمّ الكتاب جملة من الحوارات مع باحثين ومؤرخين أجانب وعرب وسوريين ، أجريت على مدى عقدين من الزمن تقريباً. وقد جاءت هذه الحوارات في سياق عمل المؤلف عبر حضور المؤتمرات الدولية التي عَنَت الحضارة السورية بكافة أوجهها ومراكزها وفاعليتها ، بالإضافة إلى حوارات خارج السياق السابق. وتمتد من عام ١٩٨٩ وحتى ٢٠٠٧ ، مع الأخذ بعين الاعتبار لعامل الزمن وقد جاء في مقدمة الكتاب: "حيث أن هذه الحوارات سواء في أسئلتها أو أجوبتها هي ابنة تاريخها ، لاسيما وأننا في حقل الآثار والتاريخ في المشرق العربي ، نحن أمام معطيات متجددة دائماً. أيضاً ، لا يعني هذا الأمر أننا لم نتقصد في الحوارات تلك مناقشة البنى والمعايير والاصطلاحات التي تشكّل ركائز مطلق حضارة ، لهذا نجد أنفسنا نتدخل في محاولة لهزّ راكد البديهيات التي وشّحت الدراسات والأدبيات التاريخية لحضارتنا".

الجامعة العربية المفتوحة لشمال أمريكا

أول جامعة عربية للتعليم المفتوح تحصل على العضوية في المنظمة الدولية للتربية.

رسالة الجامعة رسالة تربوية خدمية تهدف إلى توفير فرص التعلم لمن حرم منها أو يجد صعوبة في الالتحاق بالجامعات والكليات والمعاهد بسبب ظروفه في العمل أو سبب جغرافي يحيل دون توفر فرصة الوصول إلى الجامعات، والجامعة لا تهدف إلى الربحية، ورسالتها إنسانية علمية تربوية. تهتم الجامعة بالعملية التعليمية التي بنيت بضوء الأهداف الرئيسة للجامعة والمتمثلة في إعداد الكفاءات العلمية المتخصصة في حقول المعرفة المختلفة.

التسجيل في الجامعة

www.acocollege.com

الجامعة مسجلة في
United States Of America
State of Delaware
SRV- 080589965 - 4551260

info@acocollege.com

19057410331